منذ فصله الخامس عشر (فترة الحرب العالمية الثانية) يقف مؤلفنا ، في بعض المواضع ، مواقف **متناقضة** الى حد ما ، فتارة يتحدث عن جماهير اليهود والشعب اليهودي ، وكأن هناك خلف هذه الكلمات تصورا (قد يكون مسببه كون المؤلف يقيم في اسرائيل) لشعب يهودي فلسطيني ؟! ، وتارة اخرى يتحدث عن « حقوق الشعب اليهودي في فلسطين » (!!) ص ٣٠٠ ، وعن ان فلسطين « قطر ثنائي القومية يعيش فيه شعبان : العربي واليهودي » ص ٢٨٥ . بل من يستطيع تفسير هذه الفقرة « اندلاع الحرب العالمية الثانية أسهم في وقف الطلقات الاخيرة التي حاولت بها الرجعية العربية ، المتساوقة مع النازية ، الابقاء على وضع ثوري معاد لبريطانيا في فلسطين » ص ٢٨٢ .

ملاحظات اخيرة : لا يتسع المجال هنا لمناقشة مختلف قضايا كتابنا الراهن . لكنني أعتقد انه تجب الاشارة الى النقاط التالية :

اولا ، بدا واضحا ان الخمسة الاولى (الفصول المتعلقة بالصهيونية) هي الفصول الاكثر تركيزا في الكتاب . ففيها يلمس القارىء هذا الجهد الاضافي المبذول لتفسير التوجهات الامبريالية ــ الصهيونية للمنطقة ، حيث نجح المؤلف الى حد بعيد في العودة بنا الى جوهر الموضوع ، كما بينا في الصفحات السابقة .

ثانيا ، وهذه النقطة تشمل الفصول الخمسة الاولى ايضا . فبالرغم من كون الكتاب امتاز بعمق التحليل ، لكن **الطابع السياسي والتحليل السياسي طغيا** على الكتاب ، ولم يتم التعمق في دراسة الجانب السوسيولوجي : خلفية الاحداث. وقد كان الكاتب يستطيع ذلك ، وخاصة كونه يتسلح بالفكر العلمي ومن كبار مثقفيه ومنظريه .

ثالثا ، تبدو فقرات قليلة في الكتاب يحاول فيها الدكتور توما ان يدافع عن نفسه فيها : عن تاريخه السياسي . اذ بالرغم من كونه من كبار الثائرين على الجمود العقائدي ، ومن المناضلين في سبيل تعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني . الا انه لا يتطرق الى تلك الممارسات الخاطئة التي ثار ضدها شخصيا عبر تاريخه الوطني الحافل . هنا تجدر الاشارة الى كتابات د. توما نفسه عن الوحدة العربية وحركة التحرر العربية ، التي تعد من اهم الدراسات في هذا المجال ، وحيث يبدو فيها واضحا ، كما قال الاستاذ علوش بحق ، انه من القيادات الشيوعية العربية القليلة التي امتازت بهذه النظرة النفاذة الى مسألة التحرر في المنطقة .

رابعا ، تبقى مسألتان هامتان للغاية . هل هناك شعب « يهودي » في فلسطين قبل الانتداب، بل منذ الثلاثينات ؟ هذه مسألة يجدر التوقف عندها والتأني حيالها كثيرا لان الموقف منها يجر نتائج سياسية بالغة الخطورة . فالقول بوجود الشعب اليهودي ، حتى من ناحية نظرية ، يؤدي الى القبول بالعدو الصهيوني . نحن لا ندعو الى دولة ثنائية القومية عربية ــ « يهودية » ، نحن ندعو الى دولة ديمقراطية ضمن المنطقة العربية . ان الحل الاخير للقضية الفلسطينية لن يتم بمعزل عن حركة التحرر القومي العربية وليس بعيدا عن **آفاق النضال التحرري العربي** . ان المقدمات النظرية التي يطرحها المؤلف نفسه ليست بعيدة عن هذا الفهم . ومع ذلك فهو لا يطرحها صراحة؟! قد يكون السبب كونه يقيم تحت القبضة الصهيونية (على كل ، ان موضوع الشعب اليهودي (واطروحة القومية الاسرائيلية ؟!) بحاجة لنقاش مستفيض) .

خامسا ، تظل مسألة الاعتراف بانشاء دولة اسرائيل التي يختتم المؤلف كتابه عندها ، بعد ان يشرح ملابساتها . في تقديري ان المؤلف نفسه غير مقتنع بها ، من خلال موقفه العملي سنة ١٩٤٨ ، وان ضرورات سياسية معينة هي التي دفعته الى كتابة ذلك ، ويستطيع القارىء ان يلمس ذلك عبر سطور الكتاب .

سادسا ، نجح المؤلف في العودة بالاهتمام الامبريالي بالصهيونية منذ حملة محمد علي على سوريا . وهذه نتيجة منطقية لتفكير علمي كتفكيره. فمن خلال ايمانه بوحدة الامة العربية ، وبالبعد العربي لحل القضية الفلسطينية ، استطاع د. توما التوصل الى جوهر الموضوع : الصهيونية أداة امبريالية ضد تحرر الامة العربية ووحدتها وتقدمها . وبذلك استطيع ان ازعم ان المؤلف يستطيع ان يعود مقدماته الصائبة على نفس الطريق الذي سلكه لينتهي الى نتائجها المنطقية .

أخيرا ، الكتاب وثيقة سياسية وثقافية هامة . يجدر اقتناؤه .

محمد حافظ يعقوب